

شعرية اشتغال العجائبي في قصص الأطفال قصة "أليس في بلاد العجائب"

الدكتورة: غيبوب باية
جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف

ملخص المقال

لاشك في أنّ مبدأ العجائبي و"الفانتاستيكي" عموماً أو فوق طبعي يشكل مبدأ أساسياً وتيممة محورية في قصص الأطفال، بل نراها فضاءً أرحب وأشمل مما يمكن أن تستوعبه الكلمات.

وإذا كان العجائبي في أدب الراشدين أو الكبار يرتبط ببعض النصوص السردية والحكاية فقط، فهو في قصص الأطفال يمثل مبدأ الكتابة ويسمّونها، وهو بذلك يشكل فضاءها، فلا كتابة خارج العجائبي، ولا غواية غير غواية "الفانتاستيكي" الذي يعد فتنة القارئ الطفل المسكون بكل ما هو غرائبي ومؤنس.

وإذا كان العجائبي في أدب الكبار يدفع القارئ إلى التردد في تفسير العجائبي ومن ثمة البحث عن دلالة موضوعية له، فإنّ الطفل يستسلم لسحر العجائبي وينقاد لدلالته غير المألوفة لديه، مأخوذاً بسحر المعنى المخالف للمنطق، الخارق لسلطان العقل. من ذلك أنّ الطفل يعرف أنّ القط لا يتكلم وأنّ الطير لا يحكي أو يضحك، ومع ذلك ينغمس في غواية ما يقرأ أو ما يشاهد. ولا يخفى على أحد دور التكنولوجيا الرقمية. وخاصة ما يتعلق بنظام الجودة العالية HD.

تقدم قصة "أليس في بلاد العجائب" ذلك المرح الطفولي الذي يسكن كل كبير مهما امتد به العمر. وقد وفق "لويس كارول" في إبداع مرحه الذي يسكنه. لكنه مرح ولعب العبقرى المبدع، الذي يحول ألعابه إلى مادة تبني العقول الصغيرة وتصلبها حسب إرادته ورؤيته المستقبلية

Résumé article:

Il ne fait aucun doute que le principe du merveilleux et du fantastique, en général, ou le surnaturel constitue non seulement un fondement et un thème central dans les récits destinés aux enfants,

mais aussi un espace plus large que peut contenir les mots. Et si le merveilleux, dans la littérature des adultes est associé à quelques textes narratifs seulement, il est par contre, dans la littérature destinée aux enfants, le principe de l'écriture même, car il représente son espace. Il n'y a pas d'écriture en dehors du merveilleux et il n'y a de séduction que celle du fantastique qui représente un attrait pour l'enfant qui est hanté par tout ce qui est merveilleux et humanisé.

Si le fantastique dans la littérature destinée aux adultes pousse le lecteur à hésiter à interpréter le merveilleux et par là même, à lui trouver une signification objective, par contre, l'enfant succombe au charme du merveilleux et se laisse aller à des significations inconnues de lui, irrationnelles. L'enfant sait que le chat ne parle pas et que l'oiseau ne raconte pas et ne rit pas et malgré cela, la séduction du merveilleux le plonge dans la lecture ou l'observation, sans oublier la technologie numérique et en particulier celle relative à la haute définition.

Le récit « Alice au pays des merveilles » présente cet amusement enfantin qui obsède tout adulte, malgré son âge. Lewis Carroll a réussi à transformer son amusement intérieur en une création drolatique superbe et il transforme ses jeux en une matière qui bâtit les petits esprits et les affine, selon sa vision d'avenir.

لاشك في أنّ مبدأ العجائبي و"الفانتاستيكي" عموماً أوفوق طبيعي يشكل مبدأ أساسياً وتيمة محورية في قصص الأطفال، بل نراها فضاء أرحب وأشمل مما يمكن أن تستوعبه الكلمات.

وإذا كان العجائبي في أدب الراشدين أو الكبار يرتبط ببعض النصوص السردية والحكاية فقط، فهو في قصص الأطفال يمثل مبدأ الكتابة ويسمها، وهو بذلك يشكل فضاءها، فلا كتابة خارج العجائبي، ولا غواية غير غواية "الفانتاستيكي" الذي يعد فتنة القارئ الطفل المسكون بكل ماهو غرائبي ومؤنس. ففي عالم الطفل تذوب الفوارق والخصائص ما بين الإنسان والحيوان والجماد. فالجامع بينها هو قدرتها العجائبية على إحداث فتنة المحكي وخرق المألوف واليومي والمتوقع... وإذا كان العجائبي في أدب الكبار يدفع القارئ إلى التردد في تفسير العجائبي ومن ثمة البحث عن دلالة موضوعية له، فإنّ الطفل يستسلم لسحر العجائبي وينقاد لدلالته غير المألوفة لديه، مأخوذاً بسحر المعنى المخالف للمنطق، الخارق لسُلطان العقل. من ذلك أنّ الطفل يعرف أنّ القط لا يتكلم

وأنّ الطير لا يحكي أو يضحك، ومع ذلك ينغمس في غواية ما يقرأ أو ما يشاهد. ولا يخفى على أحد دور التكنولوجيا الرقمية. وخاصة ماتعلق بنظام الجودة العالية HD. في صناعة العجائبي في قصص الرسوم المتحركة، التي تجمع بين الصورة المتحركة والصوت والفضاء المكاني أو الطبيعي السابح في أرقى ما توصلت إليه التكنولوجيا الرقمية، من برامج ضابطة وبأنظمة رقمية عالية الجودة، قادرة على صناعة فتنة المحكي والشاعري وعلى صناعة النص الرقمي المكتوب والمنقول عن الحاسوب أو المشاهد المسموع المُخوّسب. كل ذلك ضمن فضاء لوني غاية في الجودة والإدهاش.. فما هو العجائبي أو 'الفانتاستيكي عند "تودوروف" أو "شعيب حليفي"؟ وكيف يشتغل العجائبي ضمن قصة الطفل وخاصة الأجنبية المترجمة؟ وهل العجائبي قادر على نقل القيم التربوية مرفوقة بمبدا المتعة والتسلية؟

. ما القيمة الجمالية للعجائبي في " الصورة العجائبية": الورقية والرقمية؟

وهل يمكن أن يعوّل على العجائبي بصفته أسلوبا/ تقنية، في بناء شخصية الطفل وتنمية مداركاته الفكرية والعقلية؟...

"أليس في بلاد العجائب"¹ هي رواية للكاتب الإنجليزي "لويس كارول" نشرت لأول مرة عام 1865. تحكي قصة الفتاة الصغيرة "أليس" التي سقطت في جحرأرنبت لتجد نفسها في عالم فانتازي تسكنه كائنات عجيبة، هو عالم بلاد العجائب، هذا الاسم الذي سيتحول في ما بعد إلى كرة تلج ثقافية تجتاح اللغات العالمية وثقافات الشعوب المختلفة عبر التاريخ. بل قد أصبحت إيقونة لمظاهر حضارية وحتى تكنولوجياية سمّتها المشتركة الفانتازي والعجيب، وجنوح المخيال المبدع الذي لا يعترف بمنطق الواقع. بل هو يصنع ويُشكّل من المتخيل العجائبي واقعا وحياء.

درجة الصفرة لقصة "أليس".

تتميز قصة "أليس في بلاد العجائب" بأنها قصة فكرتها النواة الأولى واقعية، بحيث يقول الدارسون أنّه قبل نشرها بثلاث سنوات كان المبدع "تشارلز لوتويدج دوجسون" والذي صار يعرف فيما بعد بـ"لويس كارول" والمبدع "روبتسون داكوروث" يقومان برحلة في قارب في نهر التايمز ومعهم ثلاث فتيات هنّ بنات "هنري ليديل" نائب رئيس جامعة أكسفورد ومدير مدرسة "ويستمينستر" والفتيات هنّ:

. لويس كارول: أليس في بلاد العجائب و أليس في المرأة. تر: سهام بنت ستية¹ وعبد السلام. مراجعة: سارة بنت نهاد وعناني. دار التنوير. القاهرة، بيروت، تونس ط1. 2013

"لورينا" (13 عاما)، و"أليس" (8 سنوات)، و"إيديث" (8 سنوات)، وخلال هذه الرحلة حكى "لويس كارول" للفتيات قصة عن بنت اسمها "أليس" كانت تشعر بالملل فخرجت للبحث عن مغامرة. أعجبت الفتيات كثيرا بالقصة وعندها طلبت "أليس" من "كارول" أن يقوم بكتابة تلك القصة لها..

استغرق "كارول" سنتين لتنفيذ هذا الطلب، لقد وسمها في بداية الأمر "مغامرات أليس تحت الأرض" وبعد عام استغرقه في التنقيح والتعديل عنونها بـ "مغامرات أليس في بلاد العجائب" وطبع منها ألفين نسخة مع رسوم لـ "جون تينيل" ولكن "تينيل" رفض الطبعة بسبب طبعها الرديء، وبعد إتلاف نسخ الطبعة بقيّ منها 23 نسخة فقط. وفيما بعد بيعت نسخة واحدة منها عام 1998 بمليون ونصف المليون دولار. وبعد عام تمت طباعة نسخة أخرى في ديسمبر من نفس العام ولكنها كانت تحمل رقم السنة 1866. وقد بيعت نسخ الطبعة كاملة وفي ظرف قصير، وحازت على شعبية واسعة، كانت الملكة "فيكتوريا" من أوائل القراء المعجبين بهذه القصة. واستمرت المطابع عبر العالم في طبعتها والتفنن في إخراجها، فقد طبعت أكثر من مائة مرة. كما ترجمت إلى أكثر من 125 لغة.

وبعد قصة "أليس في بلاد العجائب" كتب "كارول" قصة أخرى "عبر المرأة.. وماذا وجدت أليس هناك؟" عام 1871.¹

عالمية التعابير اللغوية في قصة أليس:

تكمن عالمية اللغة في قصة "أسطورة" أليس في بلاد العجائب" في ظاهرة الاستعمالات العالمية لبعض الألفاظ الواردة في خطاب قصة "أليس" والتي تحولت عبر الأزمنة إلى مصطلحات علمية ومعرفية وهو يبرهن بشكل قاطع على تحول هذه القصة من خطاب قومي ومحلي إلى أسطورة، حيث تحول النموذج البدئي أو مايسمى النماذج العليا أو الأنماط الأولية² إلى متاعل نصي يشكل مرجعية قاعدية لنصوص لاحقة، من ذلك تعبير "أرض العجائب" wonderland صار يطلق على أي مكان خيالي أو يوصف به المكان الواقعي الذي يتمتع بجمال استثنائي. وهناك أيضا "تعبير النزول إلى جحر الأرنب" "Down the rabbit hole" الذي صار يعني الآن خوض المغامرة، ويستخدم هذا المصطلح أيضا في

¹ ينظر. لويس كارول. أليس في بلاد العجائب ، وأليس في المرأة. ص : 362 ، 365

² <http://shabab-e3lam.alafdal.net>

ألعاب الكمبيوتر للإشارة إلى عنصريؤدي استخدامه باللاعب إلى دخول عالم اللعبة، أيضا يستخدم نفس المصطلح بين المدمنين للدلالة على بدء التعاطي والدخول في عالم الأوهام الذي تخلقه المخدرات، وفي عالم الكمبيوتر هناك دائما الملف النصي الذي يحمل اسم "إقراني". "read me" وهذا أيضا اقتباس من الزجاجة المكتوب عليها "اشربني"، والكعكة المكتوب عليها "كليني" في عالم "أليس"¹.

وهنا فقط يمكن الإشارة إلى العناصر السردية وتقنياتها المتضاربة وهي تشتغل ضمن متن الخطاب السردى لقصة "أليس في بلاد العجائب"، فهناك القيمة الفكرية والعلمية المتضمنة في نسيج القصة، منها: المواعظ الأخلاقية والآراء السياسية، وخاصة في قصة "عبر المرأة" وهي العمل الثاني لـ"لويس كارول" والتي تحتوي على الكثير من الألغاز الحسابية، والإشارات الدينية. يضاف إلى هذه التضمينات المعرفية تقنية سردية توظف المتن القصصي وتؤسس لنسيج أحداثه المتلاحقة. فالواقعي يمثله الحدث الإبتدائي: "كانت أليس تجلس مع أختها الكبرى التي كانت تقرأ كتابا في التاريخ وأليس منشغلة عنها، منصرفة بخيالها المجنح حيث علمها العجائبي. لأنّ الكتاب كان يحكي أحداثا تاريخية جافة خالية من عنصر الخيال"².

يمثل هذا الحدث عتبة فاصلة، ما بين الواقعي واللاواقعي، أو ما يسمى فوق طبيعي، الذي هو بشكل ما عالم "أليس" التواقة إلى لوجه تخيلا وحلما. ثم يأتي الحدث الثاني الذي يمثل العتبة الإبتدائية وبوابة المتخيل العجائبي أو الأسطوري، وتسمى هذه التقنية السردية "النقلات أو القفزة النوعية"³ ويعرفها "ماريو يوسا بارغاس" بأنها: "هي كل تبدل تتعرض له أي واحدة من وجهات النظر (الرؤى) ولهذا من الممكن أن تكون هناك نقلات مكانية أو زمانية أو في مستوى الواقع..."⁴ ومن هذا فإن ظهور الأرنب الأبيض الذي يحمل ساعة جيب كبيرة وهو قلق خائف أن يفوته الوقت، يمثل ظهوره نقلة انفتاح الرؤية العجائبية على كائناتها الغريبة المؤنسة، واللافت هنا هو مرونة الحدث السردى العجائبي الذي يمثل هذه النقلة دون الانتباه إلى هذا التحول الحاصل ما بين عالمين

¹ <http://shabab-e3lam.alafdal.net>

² ينظر لويس كارول. أليس في بلاد العجائب ، وأليس في المرأة. ص: 9

³ . ماريو بارغاس يوسا: رسائل إلى روائي شاب. تر: صالح علماني. دار المدى. للثقافة

والنشر. ط 2010/2 ص: 87

⁴ نفسه . ص: 87

واقعي/عجائبي. وهذه التقنية المرنة إذا ما أحسن استغلالها فإنها توهم بكلية تسلسل زمني (كرونولوجي). هذا إذا قسنا فاعلية هذه التقنية على القدرات الإدراكية والوعي الراشد للقارئ الراشد. فكيف يكون تلقي الطفل لمثل هذه التقنية وخاصة إذا حقق فعل التلقي مشاهدة أو لحظة فرجة كما هو حاصل مع الرسوم المتحركة وبالنظام الرقمي العالي الجودة HD؟ وشريط "أليس في بلاد العجائب" سواء المعروض على شاشة التلفاز أو الانترنت يؤكد فكرتنا هاته، لاشك في أنّ القارئ والقارئ الطفل بالذات حين يتلقاها قراءة أو مشاهدة " يبقى منجذبا ومأخوذا بما ترويه إلى حد ينسى معه الطريقة التي تروى له بها، ويتملكه الإحساس بأنّ تلك الرواية تخلو من التقنية...وبأنها الحياة نفسها متجلية من خلال بعض الشخصيات والمشاهد والوقائع التي يبدو له أنها ليست أقل من الواقع المجسد، من الحياة المقروءة.. إلى حدّ لا يمكن معه لأيّ قارئ أن يلمح وجودها، لأنه حين يستغرق بسحر تلك الصنعة لا يحس بأنه يقرأ وإنما يعيش تخيلا تمكن من الحلول محل الحياة".¹

وهنا فقط يمكننا تخيل درجة الإيهام الحاصلة لدى الطفل المتلقي لرواية "أليس في بلاد العجائب" ومع لحظة تلقيه الحدث الأولي الذي وسمناه بالنقلة أو القفزة النوعية. وهو ظهور الأرنب الأبيض. لاشك في أنّ إدراك الطفل يتعامل مع تسلسل الأحداث على أنها تشكل نسيجاً متكاملًا لبنية الزمن والمكان معا، وهذا يكمن في دور اشتغال البنية العجائبية ومدى فاعليتها السردية.

ثم تتلاحق الأحداث العجائبية ويكون الجحر الذي تدخله "أليس" منفذا حاسما إلى الفضاء العجائبي، والذي يستغرقه كامل الحكي وهو في الآن المتن العجائبي الأسطوري الذي يقع بين فضاءين متجانسين يمثلان الواقعي؛ المقدمة والخاتمة. يمثلان أيضا لحظة سكون العقل وانتفاء التخيل، في حين يمثل فضاء العجائبي نشاط التخيل وتمهيج مخيال الراوي والطفل المتلقي على السواء، وهو ما يحتاجه الطفل ويندمج فيه بسهولة وسحر. وهذا عكس الفضاء العجائبي في السرود الموجهة للكبار؛ لأنّ "العجائبي المتمثل في الظهورات والهواجس والإستيهامات والصور والمواقف والأحداث فوق الطبيعية يحتاج في تجليه إلى أمكنة، هذه التي يجب أن تتلاءم مع طبيعته المرعبة أو المعجزة والمثيرة للتساؤل أو التردد، هذه الأمكنة التي خلقتها لغة الراوي لتصبح مسرحا للتحويلات

1 ماربوبارغاس يوسا: رسائل إلى روائي شاب. مرجع سابق. ص: 86

ولأعطاب الإدراك، بحيث تزول الحواجز بين الزمان والمكان ويندغم كل شيء في تلك الطبيعة الهذيانية للمشاهدات"¹

ثم يأتي الحدث الأساس الذي هو بمثابة الإعلان عن بداية المغامرة العجائبية وهو تعبير "النزول إلى جحر الأرنب. Down the rabbit hole" والذي صار من عبارات الكومبيوتر ويعني إيدانا ببداية اللعبة.

وفي السياق اللغوي للقصبة يشير هذا إلى بداية الحكى العجائبي الأسطوري، فبمجرد دخول آليس الى الجحر تجد نفسها في عالم سحري غرائبي هذا بالنسبة لآليس، أما بالنسبة للمتلقى الطفل فإنه يعني لحظة انسرابه تخيلا وانسجاما مع أحداث القصبة مثله مثل البطلة "آليس" التي تجد نفسها طرفا في لعبة الفانتازي الذي تختلط فيه عناصر ومكونات الفضاء العجائبي من مخلوقات؛ نباتات وأشياء وجمادات وبشر. قد تساوت وزالت الفروق الخلقية الطبيعية بين هذه الكائنات، مكتسبة صفة مشتركة وهي الأنسنة؛ من نطق وضحك وبكاء وعواطف...إلخ.

"فالعجائبي يمكن تعريفه بإرجاعه إلى العقلية البدائية، كما يقول "ليفي برو ل l.broul"، وحسب "جلبير دوران G. Durand" هو البحث عن طريقة نحو النموذج الأصل... يرسل الصور من المجهول²، ويتواجد بشكل كبير في أدب الطفل، حيث يعبر عن عوالم مملوءة بمجموعة قيم متنوعة شأن الحكاية الشعبية، والسحرية أيضا"³.

ومع دخول آليس إلى الغرفة الفارغة إلامن زجاجة وطاولة صغيرة يزداد قلقها وتتلاحق أسئلتها الفضولية وتزداد معها رغبتها في مواصلة مغامراتها. تقول القصبة: "فتحت آليس الباب ووجدته مفضيا إلى ممر صغير، لا يزيد حجمه عن جحر الأرنب، ركعت آليس على

1. حسين علام: العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد. منشورات الإختلاف . ط1/2010. ص: 1

2. Jean michel. l'imaginaire de l'enfant. les contes. france ed. f. nathun. 1976 p.70

3. Bruno Bettelheim. la psychanalyse des contes des fees. ed. laffont 1976.

9، 10 ينظر شعيب حليفي: شعرية الرواية الفانتاستيكية. المجلس الأعلى للثقافة. 1997. ص: 53

ركبتها، ونظرت عبر المرمر، فرأت أجمل حديقة... لكنها لم تتمكن حتى من إدخال رأسها من فتحة الباب.. آه كم أتمنى أن أتمكن من طي نفسي مثل التليسكوب لأصبح أقصر؟...¹ مع هذه المواقف الممغزة يأتي دور لعبة اللغة لتخفف من توتر "أليس" وتجيب عن أسئلتها الفضولية، فتري أليس قنينة مكتوب عليها "أشربيني" فشربت منها "فراحت تصغر وتصغر إلى أن أصبح طولها عشر بوصات فقط وعندما قالت أليس: يا له من شعور غريب إنني أنطوي وتقصير قامتي مثل التليسكوب! وصار بإمكانها المرور من الباب الصغير. ولكن المفتاح مازال فوق الطاولة كيف ستصل إليه الآن وقد أصبحت صغيرة؟

2

ثم رأت تحت الطاولة كعكة مكتوب عليها "كليني" قالت أليس: في الواقع سأكله ولما أكلت منها "أليس" راحت تكبر وتكبر قائلة: أنا الآن أنفرد وأصير أطول من أكبر تليسكوب وداعا يا قلمي! إلى حيدٍ أنها لم تستطع رؤية قدميها، وعندما ازداد هلعها وراحت تبكي حتى غمرت دموعها الغرفة بكاملها. وتمضي "أليس" في الانتقال من لغز إلى آخر أشد تعقيدا وإغماضا. كحدث المروحة التي تأخذها من الأرنب الأبيض وتروح بها على نفسها فيتغير حجمها وهكذا، وعلى مثل هذه الأحداث العجائبية تمضي أليس مدفوعة بفضولها الذي لا يقاوم لمعرفة حل تلك الحلقات الممغزة الشبيهة بالأحداث الأسطورية التي تظهر إرادة البطل في مواجهة قدره³.

إنّ تغير حجم أليس لم يكن حدثا عفويا، إنما جاء نتيجة تقنية عالية الحكمة، ونتيجة تدبر فني سردي أراد "لويس كارول" به تقزيم "أليس" ليدمجها في عالم عجائبي يعجُّ بمخلوقات صغيرة ومجهريّة، ومن خلال هذه التقنية السردية يكشف الكاتب "لويس كارول" عن درجة التخيل لديه، طبعا تخيل الأطفال بعد أن تخلى عن تخيله هو الكاتب الإنسان الراشد. يقول الناقد "هيو وولوفبول Hugh walpole" في مقدمته لكتاب "هيولوفتنج" Hugh Lofting الموسوم بـ"قصة الدكتور دوليتل the story of Dr. Dolittle": "...أنا واثق أن الكتابة للأطفال يمكن القيام بها فقط من قبل شخص لديه

1 لويس كارول. أليس في بلاد العجائب ، وأليس في المرأة. ص: 14

2 . ينظر المصدر نفسه ص: 15، 16، 17

3 . ينظر المصدر نفسه ص: 17.. 21

الكثير من الطفولة في نظرتة وأحاسيسه...فخيال الكاتب لابد أن يكون خيال طفل، ومع ذلك يمتلك تماسك الكبار..."¹

تمضي الأحداث العجائبية وهي تصنع إغماضها الفني ،وهي تجلي شعرية المحكي، بعيدا عن صرامة الإدراك العقلي الذي هو خاصية المنطق الذي تقاس به ماهية الأشياء وكيونتها عند الكبار، ذلك أنّ الطفل وهو يتلقى مثل هذه المحكيات والسرود العجائبية يتلقاها بمشاعره الطفولية العفوية ،مشاعر مجردة من أي معيار عقلي أو فكري أو حتى منطق يعرض عليه عناصر ما يتلقاه مشاهدة أو قراءة. إنه في هذه الأحوال يكون مشغولا بمتعة المحكي وفتنة المتخيل فوق طبيعي. الطفل لا يملك مخزونا معرفيا مسبقا يعرض عليه ما يتلقاه، ولهذا نراه سريع الانسجام والاندماج بروحه في المشاهد المعروضة المتلاحقة ضمن سلسلة الحبكة، ويحدث ذلك كله أيضا بفعل سحر الإيهام الذي هو خاصية فنية إبداعية. وهذه التقنية السردية العجائبية تكون "أليس" قد انتقلت تخيلا إلى كائن غيرطبيعي يعلم لغة باقي الكائنات الأكثر ضآلة واكتسبت خصائص مغايرة. أعتقد أنّ "لويس كارول" يرمي من وراء دفع "أليس" داخل هذه المتاهات الملعزة إلى أن تمارس رغباتها الطفولية ومن ثمة اكتشاف هويتها من خلال عالم لاوجود له إلا في مخيلتها والتي هي في شرعية السرد مخيلة الكاتب الفعلي "لويس كارول". يقول "برونو بتلهيم": "القصص الخيالية على خلاف أي نوع آخر من الأدب، توجه الطفل إلى اكتشاف هويته ودوافعه"²

والتفتت "أليس" إلى الورااء فرأت الأرنب الأبيض يلهث وسمعته يغمغم لنفسه: "الدوقة! الدوقة! أه يا براثني العزيزة! أه يا فراثي ويا شواربي! ستأمري بإعدامي"³، حاولت "أليس" اللحاق به لكن سرعان ما فقدت أثره.. وراحت تركز وتتركض إلى أن وصلت إلى الغابة، "وجدت فطرا هائل الحجم.. يكاد يناهزها طولاً..،وقفت أليس على أطراف أصابعها..واختلست النظر من على حافة الفطر، وتلاقت عينها على الفور بعيني دودة كبيرة تجلس على قمة الفطر..وهي تدخن بهدوء نرجيلة طويلة..قالت الدودة من أنت؟

1 . بيترهنت: مقدمة في أدب الطفل. تر: إيزابيل كمال، مراجعة: طلعت الشايب. المركز القومي

لترجمة القاهرة. ط1. 2009. ص:31

2 . جوان أيكن "الحائزة على جائزة لويس كارول": مهارات الكتابة للأطفال. تر: يعقوب الشاروني

،سالي رءوف راجي. المركز القومي للترجمة القاهرة. ط1. 2012. ص: 172

3 لويس كارول. أليس في بلاد العجائب ، وأليس في المرأة. ص:39

..أنا..أنا أكاد لأعرف ياسيديتي..لكنني أعرف من كنت حين استيقظت من نومي هذا الصباح ،لكن أعتقد أنني قد أكون تغيرت عدة مرات منذ ذلك الحين.."¹

يعمد "لويس كارول" هنا وفي مثل هذه الإشارات السردية إلى تفسير ماغمض على "أليس" بصفتها البطلة المبترّة لجميع الظهورات وبصفتها دخيلة على عالم عجائبي غريب هو عالم الكائنات الصغيرة ، تلك الكائنات التي ترى عالمها طبيعياً في حين تراه "أليس" غريباً، تقول "أليس" للودودة: " في الواقع لربما لم تجديه كذلك بعد، لكن حين تضطرين إلى التحول إلى عذراء، وهو ما سيحدث لك في يوم من الأيام ،ثم بعدها إلى فراشة أعتقد أنك ستشعرين بأنّ الأمر غريب بعض الشيء، أليس كذلك؟"² وهذا تفسير يخفف من تردد وحيرة الطفل المتلقي، إنه إجابة عن سؤال افتراضي من القارئ الطفل. وهناك كشف سردي آخر يمثل ما يمكن وسمه "الوعي داخل اللاوعي" ذلك أنّ "أليس" كانت تحلم، والحلم يندرج في اللاوعي. وفي حلمها هذا الذي رأت فيه أنها تحاكم إذ لم يخفها حكم الملكة بقطع رأسها ، وهو ما يجلبه قول الراوي العليم بكل شيء: "وصاحت أليس بعد أن عادت إلى حجمها الطبيعي:" "من يهتم بما تقولينه ؟ لستم إلا مجرد مجموعة من أوراق الكوتشينة ! وعندئذ ، ارتفعت جميع أوراق الكوتشينة في الهواء وطارت ، وهبطت فوق أليس، التي أصدرت صرخة صغيرة ، نصفها خوف ونصف غضب، وحاولت أن تنفض الأوراق عنها، ووجدت نفسها ترقد على ضفة النهر، ورأسها في حجر أختها، التي كانت تنفض عنها برفق بعض أوراق الأشجار الذابلة التي تسافت على وجهها..قالت أليس:"ياها لقد حلمت حلماً عجبياً"³

ولكن ماذا أراد "لويس كارول" من الرؤية العجائبية والتي يمكننا وصفها بشعرية فوضى اللامعقول؟. فكل ما يقرأ يبدو عبثياً لا يقدم فائدة ترحى للطفل الباحث بإصرار عن المعرفة خارج معقولية واقع لا يرى فيه الطفل ما يشبع فضوله المتنامي، ويحقق له بعض أحلامه الصغيرة، والتي لا يتسع لها واقعه اليومي المحدود معرفياً. يرى الناقد "ت. يابتر": "أن قصة "أليس في أرض العجائب" تضع التصورات المألوفة على محك

1 . لويس كارول أليس في بلاد العجائب ، وأليس في المرأة.ص: 50، 51

2 . نفسه:ص: 52

3 . نفسه:ص: 156

وتسخر منها، تماما كما في قصة" من خلال المرأة" التي تطرح صورا مقلوبة ذكية ومذهلة (وليس مجرد رفض) للتصورات الإعتيادية حول الطريقة التي يعمل العالم بمقتضاها"¹ وبناء على هذا الطرح هل يمكننا الاعتقاد أن منطق الأشياء وحقيقتها لا ترى إلا بالوضع المطلوب؟ وهذا اعتقاد يمكن الاستئناس إليه. تقول إحدى الإجابات: "إنّ كتب الأطفال تعكس العالم كما نتمنى أن يكون، وإنما تقوم برد فعل على عالم الكبار. تماما مثلما حدث بعد صدمة الحرب العالمية الثانية، إذ تحولت كتب الأطفال إلى الفانتازيا."²

لقد أدرك "لويس كارول" بطبيعة روحه الميالة لنزق الطفولة ومرحها، وأن روح الكبار مشوشة دوما وبسبب ذلك الخلل المزمّن فيها فإنها محرومة من لحظات الفرح. لقد أدرك كارول كذلك تشوش الكبار وتغير الحجم والهوية واقترب من موضوعات الذات والموت والتفرقة الجنسية... فإنّ روحه المرحة كانت نوعا من الإزدواجية العمرية بشكل استثنائي... تماما، ذلك أن بريق الذهن المعقد المرتبك يطرح ذاته على الصغار"³

تقدم قصة "أليس في بلاد العجائب" ذلك المرح الطفولي الذي يسكن كل كبير مهما امتد به العمر. وقد وفق "لويس كارول" في إبداع مرحة الذي يسكنه. لكنه مرح ولعب العبقرى المبدع، الذي يحول أعباه إلى مادة تبني العقول الصغيرة وتصلقها حسب إرادته ورؤيته المستقبلية. إلا أنّ ثمة واحدة من الصعوبات المبدئية "ضمن هذا المفهوم العام، هي معرفة ماذا يوجد في الكبار من طفولة حتى يستطيعوا التواصل مع عالم الطفولة؟ وماذا يوجد في الطفل مما عند الكبير حتى يتقبّل ما يقدم له من الكبار؟ وأيضا معرفة فيما إذا كان الكبار على حق دائما ولا يخدمون أحيانا أفكارا مسبقة أكثر مما هي أخلاقية"⁴

قد يقول قائل محتجا على الكتابات الأسطورية والسحرية والخرافية التي توجه إلى الطفل، ما الفائدة المعرفية والتربوية التي تتضمنها مثل هذه القصص. مثل قصة "أليس في بلاد العجائب وأليس في المرأة"؟ يرى علماء النفس أنّ ما تتضمنه هذه القصص من

. ت. ي. أبت. أدب الفنتازيا مدخل إلى الواقع. تر: صبار سعدون السعدون. دار المأمون للترجمة 1 والنشر بغداد. 1989. ص: 218

. بيترهنت: مقدمة في أدب الطفل. تر: إيزابيل كمال. مرجع سابق. ص: 153

. المرجع نفسه ص: 117

. سيسيليا مير ايل.: مشكلات الأدب الطفلي. تر: مها عرنوق. دراسات نقدية عالمية. منشورات وزارة الثقافة. سورية. دمشق. 1997. ص: 33

مخاوف حقيقة" توجد في اللاوعي، وأنّ هذه القصص تلعب دورا مهما أدركه علماء النفس والتربويون لأنها تخرج هذه المخاوف إلى النور وتقدم لها الحلول...فهي توجه الطفل إلى اكتشاف هويته ودوافعه"¹

إنّ ما تقدمه قصة "أليس في بلاد العجائب" يمكنه أن يسهم بشكل كبير في تعديل مزاج الطفل ويغير رؤيته لنفسه وللعالم. وأن تجعله يتقبل بعض المشاهد المخيفة وأن يخوض معارك في لعبة سيكون هو الراجح بلا شك فيها. بل قد يتحول مفهوم المعركة عنده إلى مجرد لعبة تساعد على إظهار قدراته العقلية والنفسية وحتى مهاراته الضعيفة. تماما كما فعلت الطفلة الصغيرة "أليس" التي ولا شك سوف يعجب بها الطفل القارئ وبشجاعتها وهي تواجه الملك والملكة وجنودهما الورقية، رغم إسهار الجنود سيوفهم الورقية في وجهها. وسوف يعجب الطفل القارئ وهو يرى "أليس" تضحك مستهزئة بجنود ورق الكوتشينة الواهية. بل راحت تصرخ فيهم ضاحكة: "صاحت أليس: تقدموا فأنا لا أخاف الأوراق. لا يستطيع الملك أو الملكة إيدائي لأنهما من الورق".

تكشف قصة "أليس في بلاد العجائب" عن فكرة أسطورة مفادها أن كل الكائنات والأشياء لها روحها ولها حياتها الخاصة وعالمها المغلق. بل هي أمم سواء كانت مرئية وضئيلة، أو مجهرية خفية لا تراها العين المبصرة. والغريب أنّ الاعتقاد نجده قويا وراسخا في عقلية الطفل أكثر من الراشد. فالطفل حين يقرأ أو يشاهد "أليس" شريطا متحركا بالصوت والصورة والفضاء الطبيعي الذي تتحرك فيه "أليس" لا يشك في حقيقته لحظة بل لا يفكر في حقيقته أو عدمها. بل لا ينتبه لمثل هذا الإشكال، ولا يريد التنبه إليه. كل ما يركز عليه هو مواصلة متعة التلقي وإشباع عنصر الفانتازي الكامن في نفسه.

فالإعتقاد بأهمية الكائنات أساسية ومركزي في الفكر الإسلامي. فقط ليس بالمفهوم الخرافي أو الأسطوري الذي هو مبدأ فكري وثقافي في الثقافة الغربية. بل أساسي في المعتقد الإسلامي

يقول تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أُمَّتَالُكُمْ مَا قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) [الأنعام: 38].

1 جوان أيكن "الحائزة على جائزة لويس كارول": مهارات الكتابة للأطفال. مرجع سابق . ص: 172

ومن هذا وجب تصويب قراءة الطفل المسلم وتوجيهه الوجهة الصحيحة، التي لاتخذش عقيدته، أو تسبب لديه ترددا أو تشويشا معرفيا قد تكون عاقبته وخيمة فيما بعد.

يقول "بياجيه": "إنّ الأطفال يؤمنون بحيوية الأشياء حتى يصلوا إلى مرحلة البلوغ، فهم يؤمنون أنّ الأشياء غير الحية لها أرواح وطباع ،فالشمس تشرق علينا لأنها تحبنا والصخرة تتدحرج كي تتسبب في سقوطنا، وأنا أشك في أنّ هذه المعتقدات تدوم فترة طويلة، فالأطفال اليوم ينمون بسرعة مخيفة، بالهم من مساكين فقد أقحم عليهم البلوغ قبل أن يكون لهم فرصة كافية ليستمتعوا بالطفولة"¹

ولكن ما الذي يمكن للطفل المتلقي لقصص الأساطير والجنيات والخرافة أن يبنيّ قدراته المعرفية والسيكولوجية في زمننا هذا؟ هناك من يرى أن القصة ذات "الطابع الأسطوري قد تساعد هؤلاء الأطفال عن طريق تقديم ثلاثة مكونات أساسية: الطمأنينة، والعواطف ،والغموض. لاشك أنّ هذا هو السبب وراء الشعبية الكبيرة لكتب الخيال"²

لاشك في أنّ الطفل المتلقي لقصة "آليس في بلاد العجائب" سيجد في غموض الأحداث وتلغيزها متعة الغامض الذي يقدم الأسئلة التي لايجد الطفل حاجة إلى الإجابة عليها ، بل لايفكر إطلاقا فيها، إنه يتلقاها بصفحتها إمتاعا وموانسة لروحه التوافق لكل ماهو غامض ومثير. ومن ثمة تشكل الأحداث الغامضة الملعزة لعبة وتسلية لغوية. إنه اللعب مع اللغة الكرنفالية .

فالمسرود بكل تأثيراته المحكية يشتغل بشكل تضافري على إنتاج المضحك والهزلي وقد تحرر نهائيا من سطوة المنطقي والمعتاد والنمطي، الذي هو شأن الحياة السوية الراشدة. ومن هذا تظل قصصية الكتابة للطفل هي تربية الذوق لديه ودفعه لاكتشاف كل ماهو جميل في شخصيته وفي عناصر الطبيعة من حوله وتلوين مايبتكره خياله المجنح ، صابغا عليه لطافة نفسه وشفافية روحه الطفولية ، إن "تغيير الذوق هدف أساسي في مقصدية الكتابة للطفل، وغاية يهدف إلى تحقيقها الكاتب حين يتوجه للطفل الذي يرى فيه طرفا هاما في فعل الكتابة ، أملا في أن تسهم قصته في نضج عقل الطفل

¹ جوان أيكن: مهارات الكتابة للأطفال مرجع سابق، ص: 174

² نفسه، ص: 175

وتساعده في الآن على فهم الحياة فهما صحيحا ليشعر أنه رعاية الكبار ،ويكون ذلك عامل تلاحم وجداني وروحي في نسيج المجتمع"¹

ولكن كيف يمكن للقصاص الأسطورية والعجائبية في زمننا هذا الذي يتسم باليقيني والعلمي، زمن اختفى فيه كل غموض ولم يعد هناك مكان غامض وملتبس يمكن للجنيات والعفاريت أن تسكنه من ثمة ترسل أسرارها المخيفة؟ وقد أضاء العلم الحياة؟ إن مثل هذا الطرح يذهب بعيدا ولا يصب في إشكالية الكتابة للطفل التي من أهدافها تنشيط الخيال وصناعة متعة المتخيل وتشجيع الطفل على ابتكار عوالم ساحرة تشبع غرائزه الطفولية، والطفل بطبيعة الحال. طفل المراحل المتقدمة. يدرك يقينا أن ما يتلقاه محض خيال مجانب للحقيقة، وأنّ العجائبي والسحري هو عالم ابتكره خيال الكبار. بل إن الطفل لا يحبذ الخوض في صحة أو كذب ما يتلقى، فقط يكتفي بالتلذذ والتمتع بما يقرأ أو يشاهد. بل هناك من يرى في العجائبي والأسطوري علاجا وتربية لا بد منها، فالأسطورة" أو قصص الجنيات الخيالية تفسر أو تحل المتناقضات التي يراها الطفل حوله، وتعطيه ثقة في قدرته على التعامل مع الواقع. مازال لدينا الخير والشر، والطفل بحاجة إلى الأسطورة لتعطيه مخططا أوليا للتصرف والسلوك ولتقوية خياله..."²

لن نستطيع كاتب أدب الطفل أن يبدع قصة يتوجه بها للطفل المتلقي إلا إذا كان مسكونا بأسرار الطفل، ومشاعره الطفولية بصدق، لقد أبدع "لويس كارول" أسطوره "آليس في بلاد العجائب" لأنه أحب بشكل عجيب الطفلة "آليس ليدل Alice Liddel" والتي ألهمته كتابة رواية ملحمته تلك. يقول "لويس كارول" في مقدمة عمله ذلك: "أولئك الذين يعتبرون أنّ عقل الطفلة هو كتاب مغلق، ولا يرون الألوهية في ابتسامه طفل، سيقروا أن هذه الكلمات بلا جدوى بينما أولئك الذين أحبوا أحيانا طفلة حقيقية لا يحتاجون إلى الكلمات (لتوضيح شيء)"³

وهكذا يوضح "لويس كارول" الدافع النفسي والشخصي الذي كان سببا في كتابته لمنجزه السردي "آليس في بلاد العجائب" إنه حبه العجيب والقوي للطفلة "آليس" ومع

1. عميش عبد القادر: قصة الطفل في الجزائر، دراسة في الخصائص والمضامين. دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع. الجزائر. ط. 2. 2012. ص: 210.

2. جوان أيكن: مهارة الكتابة للأطفال. مرجع سابق. ص: 173/174.

3. سيسيليا مير ايل: مشكلات الأدب الطفلي. مرجع سابق. ص: 107.

ذلك جاء منجزه السردي المؤسس على شبكة من الألغاز العلمية واللغوية والفلسفية ،
حتى وُسم بـ"فن التفكير"¹
بل هو مشروع للتفكير وإمعان العقل في تلك الأسئلة التي ظاهرها فكاهة ومرح وباطنها
حقائق علمية وفكرية.

¹ . المرجع نفسه ,ص:104